تصوير الآخر: الإسلام في الأدبيات الغربية في العصور الوسطى

الدكتور:محمد حسن

كلية الآداب – قسم اللغة الانجليزية

جامعة قاريونس

تصوير الآخر: الإسلام في الأدبيات الغربية في العصور الوسطى

ملخص: منذ البداية، اتسم رد فعل المسيحية، متمثلة في الدولة البيزنطية آنذاك، بالعدائية تجاه الإسلام. ويعزى ذلك إلى أنها رأت فيه تهديداً وخصما لها تماما كما كان ردُّ فعل اليهودية تجاه المسيحية نفسها. وبالنظر إلى العلاقات التاريخية التي كانت في مجملها متوترة وتتسم بالعنف، كان لابدَّ لهذا العداء أن يتجذَّر ويستحكم بمرور الزمن ما أدى إلى رسم صورة سلبية نمطية جامعة قلّما نجح الغرب في العصور الوسطى في أن يرى الإسلام والمسلمين إلاّ من خلالها. لقد اضطلعت الكنيسة ورجالها بدور مهم في تشكيل هذه الصورة النمطية، بيد أن هذه الصورة انتقلت إلى الأعمال الإبداعية الغربية في العصور الوسطى. لم يكن من المستغرب إذن أن تعمد تلك الأعمال إلى استغلال الصور المشوهة للإسلام والمسلمين التي ابتدعها اللاهوتيون المسيحيون وإعادة تدويرها. ولعلَّ أوضح مثال على ذلك تلك الأعمال الأدبية المعروفة ومنها "نشيد المآثر"، و"نشيد رولاند" (1100م)، و"الكوميديا الإلهية" لدانتي، و"رحلات منديفيل" (1357م)، و"سقوط الأمراء" لجون ليدغيت (1440م). وسمحت طبيعة هذه الأعمال للأدباء أن يطلقوا الأعنة لأخيلتهم لرسم صور قاتمة للإسلام والمسلمين لم يتحرر من قيدها إلا القليل.

للقراء أن يتخيَّلوا معي إنساناً يتصف بحسن الخُلُق والخِلقة والكرم والمروءة والشجاعة والصدق والعفة ورسوخ العقيدة؛ وديناً يتصف بالتسامح والتوحيد والانتصار للحق ومناهضة الباطل. إن اعتقدتم، ولو للحظة، أنّكم ترسمون صورةً للإسلام والإنسان المسلم كما رسمها الغرب في أعماله الإبداعية عبر العصور، وفي القرون الوسطى بصفة خاصة، فأنتم مخطئون تماماً. ولكن، ما الصورة التي رسمها الغرب للإسلام والمسلمين؟ وما الأسس التي اعتمد عليها الغرب في رسم الصورة تلك؟ للإجابة عن أسئلة كهذه يتعين علينا أن نعود إلى نقطة البداية. وسواء

اتفقنا أم لم نتفق، علينا أن ننوِّه بأن العلاقة بين الإسلام والغرب المسيحيِّ علاقة بين ثقافتين مختلفتين تتميز في أغلب فتراهّا بالمواجهة والصراع.

فمنذ الأيام الأولى للإسلام اتسم ردُّ فعل المسيحية، متمثلة في الدولة البيزنطية آنذاك، بالعدائية تجاه دين رأت فيه تهديداً وخصما تماما كما كان ردُّ فعل اليهودية تجاه المسيحية نفسها. إذ عدَّ المسيحيون الإسلام إفكاً مزدوجاً، أي أنه "التزييف المفجع لكل من عالمية الديانة المسيحية بما تمثله رسالة الإسلام الجامعة من خطر الإغواء، ولخصوصية الديانة اليهودية بما يمثله تمسك المسلمين بالإرث التوحيدي الإبراهيمي دون دور فاعل للمسيح" كما تقول جوليا راينهارت لبتون (1977، 74). وبالنظر إلى الطبيعة التبشيرية للإسلام والمسيحية وإلى التماس الجغرافي بينهما كان الصراع والعداء بينهما أمراً متوقعاً. وبالنظر أيضا إلى الفتوحات الإسلامية على حساب المسيحية في بلاد الشام ومصر وشمال أفريقيا وصقلية وإسبانيا وحتى أجزاء من جنوب إيطاليا وجنوب فرنسا، إضافة إلى الحروب الصليبية وما يسمى بحرب تحرير إسبانيا، ثم ظهور الإمبراطورية العثمانية في أوروبا الوسطى، كان لابدَّ لهذا العداء أن يتجذَّر ويستحكم بمرور الزمن ما أدى إلى رسم صورة سلبية نمطية جامعة قلّما نجح الغرب في العصور الوسطى في أن يرى الإسلام والمسلمين إلاّ من خلالها.

ففي مقال بعنوان "مواقف الغرب حيال الإسلام" يشير مارشال بولدوين إلى أن الإسلام هو "الدين الوحيد التالي للمسيحية الذي اقتطع منها أراضيَ شاسعة وأنزل بها هزائم عسكرية كبرى" (1942، 403). وما زالت هذه الحقيقة تغذي مشاعر الخوف من الإسلام من جهة ومشاعر العداء من جهة أخرى حتى بعد أن تمكن الغرب من تحجيم "الخطر الإسلامي،" كما يقال، بعد "صدّ الهجوم العثماني على فيينا عام 1683م واضطرار العثمانيين إلى قبول اتفاقية كارلووتز وشروطها المجحفة عام 1699م" (بول كولز 1968، 160). وبالرغم من ذلك، استمر الغرب في رؤيته للإسلام خصماً وخطراً محتملاً حتى في عصر سيطرت فيه القوى الاستعمارية الغربية على معظم الأراضي الإسلامية. فقد استطاع الغرب في سعيه الدؤوب لفرض هيمنته على العالم أن يستوعب بل أن يدجِّن حضارات أخرى، لكن الإسلام، على ضعف معتنقيه في الوقت الراهن، ظل يتحدى بصورة فاعلة. وكما قال آرنولد توينبي (1948، 204-5؛ 212) فإن "إرهاصات التحدي الإسلامي رداً على سيطرة الغرب بدأت فعلاً مما قد يؤدي إلى استلهام عصر الأمجاد والبطولة"، ذلك العصر الذي تسيَّدت فيه الحضارة الإسلامية العالم القديم عدة قرون. وهذا التصريح من أحد أبرز رموز الفكر في

الحضارة الغربية في القرن العشرين يوفر الخلفية المناسبة للتيار الفكريِّ الحاليِّ الذي يسيطر على مراكز صنع القرار الغربي، وتحديداً في الولايات المتحدة الأمريكية، ويعمل على إعادة صياغة الإسلام (مقترناً هذه المرة بمفهوم الإرهاب) على أنه الخطر الجديد على العالم المتحضر، خصوصاً بعد أحداث سبتمبر عام 2001م. ويتزعم هذا التيار تحالف من المحافظين الجدد، واليهود المتشددين، وبعض المستشرقين الأمريكيين، المؤيدين لإسرائيل المعادين للعرب، الذين لا يرون في الإسلام، كما يقول إدوارد سعيد، "سوى رجال دين ملتحين وانتحاريين مجانين يفجرون أنفسهم بالقنابل" (1988، 47)، يدفعهم إلى ذلك الحسد والحقد على الغرب ولا همَّ لهم سوى تدمير العالم المتحضر- أي العالم الغربيِّ- وما يمثله من قيم الحداثة والتعددية.

ولم يتسن لهذا المفهوم عن "الآخر" المسلم أن يتغير حتى في عصر خلقت فيه العولمة والتمازج الثقافي وضعاً مختلفاً كان حريّاً بهذه الصورة فيه أن تتحسن. لكن يبدو أن ردود فعل الغرب – وخصوصاً الولايات المتحدة – لا زالت عدائية بشكل عام، وهذا أمر في غاية الخطورة في عالم تتسيَّده دولة القطب الواحد. ورغم ما قد يقوله البعض من أن المظاهر الدينية لهذا العداء لم تعد بيِّنة حيث إنَّ الغرب أعاد صياغة الإسلام هذه المرة على أنه "تهديد للنظام العلمانيِّ الاجتماعيِّ الذي انتهجه الغرب سبيلاً" (ريمي لوفو 1990، 108) فإن المتتبع للواقع يمكنه أن يرى غير ذلك.

ويقر ستيفين قرينبلات أن الغرب يعتمد في تصويره الإسلام على مجموعة محددة من "الأطُرِ ووسائط التصوير التي تشكل إرثاً تراكمياً تم تخزينه في بطون الكتب والوثائق وبيوتات الثقافة والذاكرة العامة إلى أن يحين وقت استرجاع تلك الصور لتولد بدورها صوراً أخرى وهكذا" (1992، 6). ولا يكاد يمر يوم دون الحديث في وسائل الإعلام المختلفة عن الإسلام اللاعقلانيِّ الأصوليِّ الذي يتخذ العنف وسيلة والإرهاب غايةً. "فالإسلام" كما يدَّعي ديفيد يروشالمي "دين يولِّد الإرهاب" (2001). وهكذا يتم اختزال عقيدة يدين بها أكثر من مليار ونصف ينتمون إلى ثقافات وأعراق مختلفة إلى "حفنة من القواعد والأنماط والتعميمات عن الدين وعن نبيِّه وعن أتباعه" كما يرى إدوارد سعيد (1997،xvi).

ولقد ذكرنا آنفا أن ردة فعل المسيحية تجاه الإسلام جاءت عدائية، ونضيف هنا أنها جاءت من موقف دفاعي، حيث يلاحظ نورمان دانيل أنه "كان من الطبيعي بالنسبة للجماعات المسيحية أن تطور نظاماً لاهوتياً لمناظرة الإسلام ودفع المسيحيين إلى البقاء على

دينهم" (1966، 3) لاسيما بعد أن اكتسح الإسلام الأراضي المسيحية في الشرق وتحولت أعدادٌ كبيرة منهم إلى الدين الجديد. إذاً، كانت ردة الفعل الأولى للمسيحية تجاه الإسلام نابعة من الخوف مغلفاً بالجهل ومن رغبة في الدفاع عن النفس، الأمر الذي كان له الأثر البالغ في تشويه صورة الإسلام والمسلمين. لم يضطلع هذا النظام اللاهوتي بمهمة تبيان "ضلال عقائد العدو" فقط، بل تعداها إلى جعل الإسلام يبدو بغيضاً لدرجة تكون فيها مسألة اعتناقه أمراً بعيد الاحتمال. وفي واقع الأمر لم يكن هذا النظام الجدلي اللاهوتي موجهاً للمسلمين قدر ما كان موجهاً للمسيحيين الذين كانوا أكثر قابلية من المسلمين للتحول عن دينهم. وعليه طور سدنة هذا النظام خطاباً يستند إلى مقاربة مزدوجة لهذه المعضلة تتمثل في: أن الدفاع عن المسيحية يستوجب مهاجمة الإسلام بوصفه دين باطل لا أخلاقي ويتحقق ذلك بتركيز الهجوم على تعاليم الإسلام وعلى سيرة نبيِّه؛ وأنه إذا أمكن إثبات أن صفات رسول الإسلام تتناقض مع التعريف السائد للنبوَّة، إذن يصبح من اليسير إثبات بطلان تعاليم الإسلام، ومن ثم إعادة الاعتبار للديانة المسيحية- الدين الحق.

وباتِّباع هذا الخطاب الجدلي المزدوج، رسم مسيحيو بيزنطة صورة للإسلام أقل ما يمكن أن يقال عنها إنها "صورة كاريكاتيرية غاية في القتامة" (وات 1991، 83)، حيث أصبح التقليد السائد تصوير الإسلام على أنه بدعة وخروج على المسيحية ونقيض لها، وأنه الدين الذي يدعو إلى عبادة الأوثان. وفي هذا السياق رسمت صورة الرسول باعتباره "النبيِّ الدجال أما القرآن فليس أكثر من كتابٍ مفترى" (المصدر نفسه88).

ويعدُّ "يوحنا الدمشقي" الذي ولد قبل مضي خمسين عاما على وفاة الرسول (عليه السلام) "مؤسس هذا التقليد" (نورمان دانيل 1993، 133) حين كتب عام 743م رسالة بعنوان "نبع المعرفة" نعت فيها الإسلام "بالبدعة والأسطورة الماكرة لأبناء إسماعيل، أجداد المسيح الدجال" (جون ساهاس دانيل 1972، 54-55؛ 133). ويصرُّ الدمشقي على أن الإسلام تحريف للمسيحية حيث قام الرسول بتلفيق "القرآن من مقتطفات من العهدين القديم والجديد بمساعدة سيرجيوس، الراهب النسطوري المارق، وحاول إضفاء المصداقية على هذا التلفيق بادعائه أنه أنزل عليه من السماء" (المصدر نفسه 73). كما أن يوحنا الدمشقي أول من تناول من المسيحيين قصة السيدة زينب بنت جحش التي تزوجها الرسول بعد طلاقها من زيد (الذي كان الرسول قد تبناه) وساق ما كاد يكون في نظره زواج محارم دليلاً على "السلوك غير المقبول وعدم العفة" (نورمان دانييل 133). و لم يكلف يوحنا الدمشقي نفسه عناء البحث في فلسفة زواج الرسول عليه السلام من زينب بنت جحش ودور ذلك الزواج

في تأكيد الإسلام على إلغاء مبدأ البنوَّة بالتبني الذي كان سائدا من قبل. واتهم الدمشقي النبي بأنه "يتلاعب بالقرآن مضيفا إليه ما يدعيه وحياً حسب مقتضى الحال إرضاءً لنزوات عابرة" (المصدر نفسه).

وتمسك التابعون بهذا التقليد الذي يعتمد الهجوم على شخص الرسول عليه السلام نهجاً. ولعلّ أوضح مثال على ذلك مقالة بعنوان "رسالة الكندي" ألفها عام 830م مسيحيٌّ من أصل عربي هو عبد المسيح بن إسحاق الكندي مضطلعا فيها بمسؤولية إثبات بطلان الأسس التي يستند عليها الإسلام وزيف نبوَّة الرسول. يدَّعي الكندي أن يُتْمَ الرسول ونشأته المتواضعة لم يبشرا بنبوَّته وأنه، أي الرسول، لم يبدِ أيّاً من علامات النبوة المتعارف عليها مثل العلم بالغيب وفعل المعجزات. إضافة إلى ذلك، ساق الكندي تعدد زيجات الرسول دليلاً على انعدام العفة المترتب عليه بطلان النبوة. و لم يفت الكندي أن يتهم الإسلام بالعنف لأنه انتشر بحد السيف، وبأن رسالة النبي رسالة شيطانية وأن القرآن من وضع الرسول بمساعدة المنشق سيرجيوس، الراهب النسطوري المارق (الرسالة 1882، 4-30). وكان الكندي أول من روَّج أسطورة التابوت المعلق حين ادَّعى بأن الرسول تنبأ بأنه سيصعد إلى السماء بعد ثلاثة أيام من موته. ولما لم يحدث ذلك، وبدأ جسده بالتفسخ اضطُر أصحابه، حفاظاً على سمعته، إلى سرقة التابوت ونقله إلى مكة حيث ظل معلقاً في سقف الكعبة مدعين في الوقت نفسه أن الملائكة نقلته إلى هناك (الرسالة 1882، 17). ولعل الرد الحاسم على هذه الفرية يكمن في زيارة واحدة إلى المدينة المنورة كان حريّاً بالكندي القيام بها ليكتشف بطلان قوله. وعلى مر العصور صارت هذه الأسطورة الباطلة دليلاً قاطعاً عند الغرب على عجز النبي عن فعل المعجزات بخلاف السيد المسيح. ولعله من المفيد هنا الإشارة إلى أن هذه "الأسطورة" تستند في أصولها وتفاصيلها إلى قصة تابوت بني إسرائيل وقصة بعث السيد المسيح وصعوده في العهدين القديم والجديد أكثر من استنادها على مصادر إسلامية.

وتواصلت عملية ابتداع الأساطير ونسجها مثل أسطورة الحمامة التي ادَّعي مروجوها أن النبي دربها لتأكل من أذُنه حتى يقنع أصحابه بنزول الوحي عليه. ومرة أخرى تُنسَج هكذا أسطورة استناداً على الإنجيل حيث يرد في إنجيل متى (16:3) وصف لجبريل عليه السلام بأنه تنزَّل على المسيح على هيأة حمامة. وكما هي طبيعة الإنسان في التعامل مع اللاّمألوف بلغة المألوف، حاول المسيحيون في مواجهتهم للإسلام تفسيره بلغة يفهمونها دون اعتبار لطبيعته المستقلة إن لم تكن المختلفة وهذا ما يبين أصل أسطورتي التابوت المعلق والحمامة المدرَّبة. بل

وصل الأمر ببعضهم (وليام الطرابلسي وبطرس الناسك على سبيل المثال) إلى حد اتهام هذا الدين بأنه هرطقة مسيحية. ولعلَّ السبب في ذلك يعزى إلى ما في القرآن من أشياء لم يكن في مقدور اللاهوتيين المتطرفين نعتها بالأكاذيب لتوافقها مع ما في الإنجيل.

وهذا بالتأكيد ما يفسر أصل الأسطورة التي تدَّعي أن النّبي كاردينال منشق. فقد ادَّعى بعض المتطرفين بأن الرسول كان كاردينالاً في روما وعندما لم يتم اختياره لمنصب البابا قاد العرب في حركة انشقاق لتدمير الكنيسة (البشتي، 7). وقد اعتمد بعض الكتّاب، مثل دانتي في الكوميديا الإلهية، على هذه الأسطورة في أعمالهم الإبداعية. أما أسطورة الثور الذي دربه الرسول ليحمل المصحف على قرنيه فهي أقل تداولاً من غيرها ومن الواضح أنها إما أن تكون تحريفاً أو فهماً مغلوطاً لسورة البقرة.

وجرياً على عادة التجريح الشخصيِّ، نُسجت حول وفاة الرسول بعض الأكاذيب التي لا مناص من ذكرها حيث إنها استُغِلت سلاحاً في ترسانة المعادين للإسلام. فهناك من يزعم أن الرسول مات بسبب نوبة صَرَعٍ والتهمته الكلاب ويؤكد البعض الآخر أنه مات مسموماً على يد امرأة يهودية ماكرة (نورمان دانيل 1993، 127). ويزعم ماثيو باريس (1195-1229) أنه بينما كان الرسول يعاني من أثر السم شرب خمراً حتى الثمالة فأصابته نوبة صرع ووقع في زريبة خنازير فالتهمته (المصدر نفسه). ويزعم الكثير ممن هم على شاكلة باريس أن هذه الميتة الثلاثية تناسب الجرم الذي ارتكبه مؤسس، ما في رأيهم، حركة "الزندقة التثليثية" بل يُرجع البعض منهم سبب تحريم شرب الخمر وأكل لحم الخنزير في الإسلام لهذه الحادثة المزعومة متجاهلين الحقائق التاريخية التي تثبت أن تحريم شرب الخمر وأكل لحم الخنزير كانا قبل وفاة الرسول الطبيعية.

واستمرت هذه الأساطير في الانتشار في أوروبا رغم زيادة المعلومات الصحيحة عن الإسلام عبر بوابة إسبانيا وأثناء الحروب الصليبية. وما زالت بعض هذه الأساطير متداولة حتى في عصر المعرفة والمعلوماتية بل إن منها ما ترسخ في الذاكرة العامة للشعوب الأوروبية. فهناك، على سبيل المثال، قول متداول في اللغة الإنجليزية فحواه:

(If the mountain does not come to Mahammad, Mahammad goes to the mountain)

وهو مبني على أسطورة مفادها أن الرسول حاول بعد إلحاح من أصحابه تبيان قدرته على فعل المعجزات مثل بقية الأنبياء والرسل فأشار, إلى جبل آمراً إياه بالقدوم وعندما لم يتحرك

الجبل من مكانه ورأى الرسول علامات خيبة الأمل على الوجوه ابتسم وذهب إلى الجبل قائلاً "إن لم يأتِ الجبلُ إلى محمدٍ، فإن محمداً سيذهب إلى الجبل".

ورغم ما يبدو من طغيان تيار العداء السافر للإسلام على المشهد الديني في أوروبا القرون الوسطى كان بعض المسيحيين ممَّن وهبوا حياهم لمناظرة الإسلام ومجادلته أقلَّ تشدداً من غيرهم، بل أبدى بعضهم قدراً من المرونة وإن كان من أجل كسب ثقة المسلمين وإقناعهم باعتناق المسيحية، ومن هؤلاء وليام الطرابلسي أحد أفراد طائفة الدومينيكان في عكا في السبعينيات من القرن الثالث عشر. كان وليام الطرابلسي يرى في الإسلام "هرطقة مسيحية وأنه يتعين على المسيحيين تشجيع المسلمين على التمعن في القواسم المشتركة بين الإسلام والمسيحية" (نورمان دانيل 1993، 294) وأهم، أي المسلمون، قطعوا شوطاً لا بأس به على طريق اعتناق الديانة المسيحية.

ويتبنى بطرس الناسك، الذي اختير رئيساً لدير كْلَني (Cluny) عام 1122، الرأي "بأن الإسلام هرطقة مسيحية كبرى" (جيمس كريتزك 1964، 141) وأن عداء المسلمين للمسيح "ينحصر فقط في رفضهم مبدأ أنه المخلص " (المصدر نفسه21). ويرتئي أنه من اليسير إقناع المسلمين باعتناق المسيحية، لأهم في الواقع يؤمنون بالمسيح ويؤمنون بأنه ولد لأم عذراء ويعظمون أمه مريم. وللوصول إلى هذه الغاية كان لابد من دحض هرطقتهم بالحجج والبراهين وهذا لا يتأتى إلاّ بتوفر المعلومات الصحيحة عن الإسلام. ووصولاً إلى هذه الغاية أمر بطرس الناسك بترجمة القرآن الكريم إلى اللاتينية ممهداً الطريق إلى قيام الدراسات الأكاديمية للإسلام في أوروبا. وممّا يحسب لبطرس الناسك اقتناعه التام بوجوب مقارعة المسلمين "بالحجة لا بالسلاح، وبالعقل لا بالقوة، وبالحب لا بالحقد" (المصدر نفسه 47). لكنَّ هذا الرأي لا يمثل تحولاً عاماً في مواقف معاصري بطرس الناسك تجاه الإسلام.

وفي سعيهم الدؤوب لتشويه صورة الإسلام بتشويه صورة نبيِّه تلقف تُبّاع النظام اللاهوتي المدافع عن المسيحية في العصور الوسطى، دون عناء البحث والتمحيص، إرث يوحنا الدمشقي والكندي "ووضعوا معياراً جامعاً تقاس عليه كل النبوّات وتُستَبعد به نبوَّة محمد" (نورمان دانيل 1993، 88). ويمكن اختزال النظام كله في المبادئ الثلاثة التالية وهي: أن تكون حياة الأنبياء مثالا للاستقامة، وأن يتمكن الأنبياء من فعل المعجزات، وأن تحتاز أقوالهم حقائق خالدة. لا يحتاج المرء إلى التذكير بأن الهدف الأساسي لهذا النظام هو التدليل على أن فشل

النبي في تحقيق أيٍّ من هذه المبادئ يعدُّ دليلاً كافياً على زيف نُبوَّته. وعندما تعارضت الشواهد من حياة النبي مع ما يراد تصويره لم يتردد الكتاب المسيحيون الغربيون في تأويل تلك الشواهد بما يتناسب مع الأمر المقصود أو اختلاق شواهد جديدة معتمدين في ذلك على مقولة أن "ما يضير أعداء الحق لابدَّ أن يكون في ذاته حقيقياً" (المصدر نفسه271) حتى وإن لم يتعدَّ الأمر مجرد القيل والقال. وعليه لم يجد الكتّاب الأوروبيون حرجاً في الإقرار بأنهم اعتمدوا الرأي العام واللغو من القول مصادر يستقون منها معلوماتهم عن الإسلام. فهاهو Guibert of Nogent يصرِّح بأنه "من المقبول أن يذكر الإنسان بالشر أولئك الذين يتجاوز أذاهم حدود الشر بكثير" (مقتبس في سَذَرن 1962، 31).

وجريا على ما ابتدعه أسلافهم رسم المدافعون عن المسيحية في العصور الوسطى صورة قاتمة للإسلام والمسلمين كانت بكل المقاييس أبعد ما تكون عن الواقع؛ صورة لا تعبر عن واقع الإسلام ورسالته وحضارته قدر ما تعبر عن الإسلام كما يراه ويريده الغرب. وعليه فقد أدين الإسلام بارتكاب كل الخطايا وألصقت به كل التهم والصفات البشعة التي تستبعده من تملُّك الحقيقة التي أصبحت كاملة بحوزة الغرب وغدت وظيفة الإسلام منحصرةً في لعب دور "الآخر النقيض" الذي يعزز شعور أوروبا بذاتها وبهويتها. فالإسلام هو العدو الذي يمثل كل ما ليس مسيحياً، أي النقيض. فلقد أنكر الإسلام مبدأ التثليث وأنكر ألوهية المسيح وصلبه ثم حاول، حسب رأيهم، بالعنف تدمير العقيدة المسيحية. وهكذا تعرض الإسلام والمسلمون لشطحات الخيال الغربي الممعنة في الإفراط مما أنتج صورة جامعة غاية في السلبية استطاعت الصمود في وجه كل التطورات نحو ما هو أفضل.

صار الإسلام والمسلمون في هذه الصورة يمثلون كل ما يراه المسيحي مقيتاً وبغيضاً. فالمسلمون وثنيون وكفار لا عفة لهم ومخادعون وبرابرة مفتئتون؛ والإسلام دين العنف والتدجيل والإباحية، دين افتقر إلى الفضائل وتعمد تحريف الحقيقة وإغراء الناس حتى يعتنقوه مستغلاً إما القوة أو الإباحية؛ والقرآن عبارة عن خليط غريب من الأفكار المتناقضة؛ أما الرسول فهو "المسيح الدجال". وعليه كان لابد للمسيحية من إدانة الإسلام والتصدي له قبل القضاء عليه نهائياً.

لم يكن من المستغرب إذن أن تعمد الأعمال الإبداعية المتخيلة في الغرب إبَّان العصور الوسطى إلى استغلال الصور المشوهة للإسلام والمسلمين التي ابتدعها اللاهوتيون المسيحيون

وإعادة تدويرها. ولعلَّ أوضح مثال على ذلك تلك الأعمال الأدبية المعروفة ومنها "نشيد المآثر"، و"نشيد رولاند" (1100م)، و"الكوميديا الإلهية" لدانتي، و"رحلات مندفيل" (1357م)، و"سقوط الأمراء" لجون ليدغيت (1440م). وسمحت طبيعة هذه الأعمال للأدباء أن يطلقوا الأعنة لأخيلتهم لرسم صور للإسلام دون قيود أو حدود، فصار المسلمون برابرة إرهابيين وعبدة أوثان، أما النبي فأصبح دجالاً وإلهاً يُعبَد. ويؤكد سي. ميريدث جونز في مقالة بعنوان "الصورة التقليدية للسراسنة* * في نشيد المآثر" أن التقليد السائد في الشعر الملحمي الفرنسي هو تصوير المسلمين على أنهم:

> أشرار يمضون حياتهم في كره وتحقير المسيح وتدمير كنائسه، وهم أبناء رأس الفتنة ومصدر كل الشرور- إبليس.
>
> إنهم يكرهون الله ويضعون أنفسهم تحت إمرة الشيطان. وكثير منهم عمالقة بشعون ، كما أن منهم قبائل بأكملها
>
> ذوي قرون، ومنهم سود البشرة بلون الشياطين. ويندفعون إلى المعارك مصدرين أصواتا غريبة مثل نباح الكلاب.
>
> تغلب عليهم العواطف الجياشة فتنهمر دموع الفرح منهم لحظة لتعود دموع ترح لحظة أخرى. أما من الناحية الاجتماعية
>
> فإن سلوكياتهم تجسيد لكلِّ ما هو مقيت شائن حيث تعوزهم السمة الوحيدة للكمال- أي العقيدة المسيحية- وبالتالي فهم
>
> يمارسون النخاسة والرق وتعدد الزوجات ويأكلون أسراهم. وهكذا ابتدع شعراء الملاحم هذه الصورة الشائنة المهينة لا
>
> لشيء إلاَّ لتأكيد أن سبب كل هذه الشرور هو كفر المسلمين بالديانة المسيحية. (1942، 205)

ويستطرد جونز قائلاً إن "هذه الصورة ليست وليدة حقائق معرفية بل هي مبنية على ما ارتأته السلطات الدينية ذات المصلحة في تشويه معتقدات الكفار وعاداتهم" (203). وفي مثل هذه الظروف لم يكن الكاتب أو القارئ أو السامع على استعداد للبحث عن الحقيقة، كما لم

---

* تسمية تطلق على العربي أو المسلم، خصوصا في العصور الوسطى، ثم عُمِّم استعمالها لتطلق على كل من ليس مسيحيا (Saracen).

يكن لدى المدافعين اللاهوتيين الاستعداد مطلقاً لتقبل الأدلة التي تتناقض مع تصوراتهم المسبقة عن الإسلام والمسلمين.

وقد انعكست كل هذه الصور في ملحمة "مآثر رولاند" التي ألفها شاعر فرنسي مجهول حوالي عام 1100م. وتعدِّد هذه الملحمة مآثر شارلمان، ملك الفرنجة، وبطولاته ضد المسلمين. وتستند هذه الملحمة إلى حادثة تاريخية عام 778م إذ بينما كان شارلمان عائداً من حملة عسكرية على إسبانيا هاجم محاربون من الباسك مؤخرة جيشه وأبادوها. لكن الملحمة تستبدل المهاجمين الباسك بالمسلمين. ومن الشخصيات التي تلعب دوراً مهماً في الملحمة ملك سرقسطة المسلم مارسيل وهو شخصية "تكره الرب" وتعبد "محمداً وتصلي للإله أبولو" (نشيد راندال 1978، 3). ومارسيل هذا وثني يعبد مجموعة من الآلهة "منها القرآن" وعلى رأسها "كبيرهم محمد" (47: 610-11). ويرفع "هؤلاء الوثنيون تابوت" النبي "عاليا عند كل معركة ليتحقق لهم النصر" (68: 853-4). وعندما حمي وطيس المعركة تضرع مارسيل وجنوده إلى محمد بالدعاء إلاَّ أنه يتخلى عنهم، لذلك ينقلب عليه مارسيل وجنوده فيحطمون تمثاله ويلقونه في خندق حيث تدوسه الكلاب والخنازير (187: 2580-91).

هكذا حال المسلمين كما يراهم الغرب في العصور الوسطى: تذبذب في العقيدة وتردد في المواقف. ويمثل هذا التدنيس "لتمثال محمد" عقوبة مهينة ويرتبط في الوقت نفسه بالأسطورة السالفة الذكر عن موت النبي. وتؤكد هذه الملحمة التناقض الصارخ بين شخصية الرسول من جهة وشخصية المسيح من جهة أخرى حتى في موته الذي يعدُّ هنا محاكاة ساخرة لموت المسيح كما ورد في الإنجيل. ولعلها مفارقة غريبة أن يوصم الإسلام بالشرك وهو دين التوحيد وأن يصبح الرسول الذي حطم الأصنام في مكة إلها يعبد. ولا غرابة في مثل هذا التصوير العدائي للإسلام والمسلمين في ملحمة تمجد بطولات ملك الفرنجة ضد المسلمين في إسبانيا.

ويوظف جون ليدغيت (1370-1451م) الخطاب العدائي نفسه في تصويره للإسلام والنبي في الجزء التاسع من قصيدته "سقوط الأمراء" (The Fall of Princes) الذي يسترسل فيه المؤلف في الحديث عن حياة النبي وتعاليم الإسلام. استطاع ليدغيت بأسلوب ماكر في أقل من مائة وعشرين سطرا أن يحشر كل الأساطير والأكاذيب المتواترة في عصره عن النبي: التدجيل، والسحر، والخداع، ونوبات الصرع، والشهوانية. يقول ليدغيت من السطر الثالث والخمسين إلى السادس والخمسين:

نبي ساحر دجال
مطّلع على كل الكتب القديمة
ولد في جزيرة العرب من أصل وضيع
ممضياً حياته في عبادة الأوثان. (53-56)

ويعيد ليدغيت تدوير أسطورة أن الإسلام لملمة للتراث اليهودي-المسيحي، وأن النبي أغوى (السيدة) خديجة، زوجته الأولى، بمعسول الكلام كي تقبله بعلا، وادعى النبوة ونزول الوحي؛ كي يبرر لها نوبات الصرع التي تنتابه. كما كرر ليدغيت أسطورة الحمامة المدربة وأسطورة سيرجيوس الراهب النسطوري الذي ساعده في كتابة القرآن. واتهم ليدغيت النبي بأنه وثني دفع السراسنة إلى عبادة الجمعة (60-138)، ربما بسبب تفضيل يوم الجمعة للعبادة عند المسلمين. كما اتهم ليدغيت النبي بالازدواجية الأخلاقية، فهو يأمر أصحابه بما لا يفعل مدعيا أن الله منحه استثناء خاصا مثل تحريم الزواج بأكثر من أربع على المسلمين في حين تزوج هو أكثر من ذلك (139-140). وأبدى ليدغيت اهتماما غير عادي بموت النبي وكيفيَّته واعاد ذكر الأسطورة المتواترة عن تعرّض النبي وهو ثمل لنوبة صرع سقط إثرها في زريبة خنازير التهمته (152-154).

وتمثل "الكوميديا الإلهية" لدانتي عملاً أدبياً ينعكس فيه التوافق والانسجام بين الأدب والكنيسة في موقفهما حيال الإسلام والمسلمين. فالعقوبة التي يخص بها دانتي النبي في الجحيم (المقطع الثامن والعشرون) تعكس بجلاء وجهة نظر الكنيسة فيما يتعلق بمحاولة النبي تدميرها من الداخل بزرع الفرقة والشقاق، استنادا على أسطورة محمد الكاردينال المنشق السالف ذكرها. ولهذا كانت عقوبة النبي شطره نصفين من أسفل الذقن حتى الإست ليلتئم ثم يشطر بصورة أبدية (الكوميديا الإلهية 1872، 113). إن الطبيعة الوحشية لهذه العقوبة التي يرى دانتي أنها تناسب الجرم المرتكب تزداد حدَّة بذلك الوصف المقزز لمحتويات أحشاء النبي المتدلية بين ساقيه، إضافة إلى الوصف المريع للطريقة التي يمزق النبي بها صدره في نشوة ماسوشية مخيفة:

تتدلى أحشاؤه بين ساقيه
حيث ينشطر وسطه إلى نصفين
ليستبين ما هو كريه وقذر

وعندما ألقيت عليه نظرة فاحصة
رمقني وهو يشق صدره بيده
وقال: انظر كيف أمزق صدري
انظر كيف ينشطر محمد إلى نصفين
وأمامي، يمر عليّ متألّما
مشطور الرأس من الذقن حتى الحاجبين
وكل الذين تراهم يلفهم الألم
ويُمزَّقون شر ممزَّق
ولأنهم زرعوا بذور الفتنة على الأرض
استحقوا عقوبة باذري الشقاق. (الجحيم 28: 25-36)

من الواضح هنا أن دانتي يرى في الآلية التي تحيل بها الأمعاء الطعام غائطاً تشابها مع فعل النبي الذي يقلب الحق باطلاً (جاك دآميكو 1991، 77)، لذلك جاءت العقوبة وجاء الوصف بهذا الشكل.

إن عقوبة النبي في الدائرة التاسعة، أي الدرك الأسفل من جحيم دانتي، حيث لا أسوأ من عقوبته إلا عقوبة إبليس، ليست أكثر العقوبات فظاعة فقط بل لا "تضاهيها أية عقوبة في إثارة الاشمئزاز وبشاعة الوصف وفي الاستعراض الجسدي المهين" (تاتلوك 1932، 192). وتُظهِر وحشية العقوبة التي أوقعها دانتي على النبي مدى الجدية التي تعامل بها الكاتب مع ما يمثله له الإسلام من خطر على الكنيسة. فقد فقدت الكنيسة وحدتها وتماسكها وقوتها بسبب ما جاء به النبي، وبدا هذا أكثر وضوحاً في الجزء الثاني من الكوميديا (المطهر 32: 130-35) حيث يرمز قيام التنين بشق أرضية عربة الكنيسة إلى تلك الخسارة (186:32). وبالمقارنة تبدو عقوبة الإمام علي بن أبي طالب أقل حدة وترويعا من عقوبة النبي ومرد ذلك إلى ما يراه الغرب المسيحي من أن المسلمين جميعاً ضحايا "المخادع الأكبر" مما يستوجب تخفيف عقوبتهم.

ومن المثير للاستغراب أن دانتي أسكن ثلاثة من المسلمين في الدائرة الأولى من الجحيم (المقطع 9) صحبة المبدعين والوثنيين الفضلاء. اثنان منهم –ابن سينا وابن رشد– رجلا علم وفلسفة من المدرسة الأرسطية، أما الثالث –صلاح الدين– فقائد معروف بنبله وفروسيته

وجهاده ضد المسيحيين. ولا يعبر وجود ابن سينا وابن رشد مع هذه الصحبة عن التسامح الديني بل هو اعتراف، ولو على مضض، بالدور الذي لعبته الحضارة الإسلامية في الحفاظ على التراث الكلاسيكي ونقله وتطويره، وهذه حقيقة يبدو أن الغرب يتجاهلها في أحيان كثيرة. أما ما حظي به صلاح الدين من مكانة فهو من باب تمجيد الصفات التي يتميز بها ما يطلق عليه في الغرب "الوثني النبيل" الذي يستوجب التقدير والاحترام رغم عدم اعتناقه المسيحية *.

وأخيرا، فعلى الرغم من الصورة السلبية السائدة عن الإسلام والمسلمين في الغرب في العصور الوسطى فإن بعض الكتَّاب استطاع أن يتخلص، ولو جزئيا، من سيطرة تلك الصورة، ربما بدافع المصلحة العليا للمسيحية، حيث أعلنوا بأن هناك الكثير من العوامل المشتركة بين الديانتين مما يجعل التقارب بينهما ممكناً ويؤدي، مع بذل قليل من الجهد، إلى أن يعتنق المسلمون المسيحية، ومن هؤلاء وليام الطرابلسي الذي وردت الإشارة إليه سابقا. وسار مؤلف كتاب "رحلات مانديفيل" (1357م) على الدرب نفسه. ورغم أنه يكرر بعض الأساطير المتواترة فإنه يقدم، وإلى حدٍّ مَّا، صورة أكثر واقعية عن الإسلام والمسلمين. فلقد ذكر المؤلف أن المسلمين يجلُّون ويعظمون المسيح وأُمَّه مما يَسهُل معه اعتناقهم المسيحية لأنهم، وكما يقول، "أقرب إلى عقيدتنا المسيحية" (رحلات مانديفيل 1919، 87). ويثني المؤَلِفُ على المسلمين وخصالهم الحميدة وطاعتهم التامة لأوامر الله ونواهيه ملقيا اللوم على إخوانه المسيحيين الذين ابتعدوا، في رأيه، عن تعاليم السيد المسيح فيقول: " إن المسلمين ملتزمون بعقيدتهم لأنهم يتَّبعون تعاليم القرآن الذي أنزله الله على رسوله محمد" (المصدر نفسه91). وعليه، كما يؤكد روبرت شوبيل، فإن الله "منح المسلمين مكاناً في ملكوته ومنحهم إمكانية الخلاص، كما أن لديهم في القرآن جزءاً من الحقيقة" (1965، 181).

لكن الثناء الذي أغدقه هؤلاء الكتَّاب على المسلمين نابع، إلى حدٍّ ما، من مصلحة مسيحية ذاتية: إما لتنصير المسلمين، أو استغلالهم أداةً لتقويم اعوجاج المسيحيين حيث يكون انتقاد أولئك الكتَّاب لإخوانهم المسيحيين أكثرَ حدَّة وأشدَّ وطأة عندما يصير المسلمون أعمق إيمانا وأرسخ عقيدة. أما في العموم فقد ظل العداء الديني المستحكم، لا التسامح، يشكل وجهات النظر والمواقف تجاه الإسلام والمسلمين عند الغرب في العصور الوسطى.

---

* يعدّ' صلاح الدين أحد قادة المسلمين الذين يتكرر ظهورهم في الأعمال الأدبية الغربية من حين إلى آخر ويشكل تصويرهم بطريقة لا تخلو من التقدير انحرافا عن وجهة النظر العدائية السائدة عن الإسلام والمسلمين لدى الغرب المسيحي في العصور الوسطى.

المــراجــع

Al Kindy. 1882. *The Apology of Al Kindy*, trns. By William Muir. London: Smith , Elder & Co.

Baldwin, Marshal W. 1942. "Western Attitudes Towards Islam." *The Catholic Historical Review*, 28: 403-411

Bishti, Tarek M. 1990. "Orientalism and Nineteenth Century English Travellers to the Middle East" (unpublished doctoral thesis, University College Dublin)

Coles, Paul. 1968. *The Ottoman Impact on Europe*. London: Thames and Hudson.

D'Amico, Jack. 1991. *The Moor in English Renaissance Drama.* Tampa: University of South Florida Press

Daniel, J. Sahas. 1972. *John of Damascus on Islam: The 'Heresy of the Ishmaelites`*. Leiden: E. J. Brill

Daniel, Norman. 1993. *Islam and the West: The Making of an Image,* rev. edn. Oxford: Oneworld Publications

______. 1966. *Islam, Europe, and Empire*. Edinburgh: Edinburgh University Press

Dante. 1872. *The Divine Comedy,* trans. by Ichabod C. Wright, 5th edn. London: Bell & Daldy

Greenblatt, Stephen. 1992. *Marvelous Possessions: The Wonder of the New World*. Oxford: Clarendon Press

Jones, C. Meredith. 1942. "The Conventional Saracen of the Songs of Geste." *Speculum*, 17: 201-25

Kritzeck, James. 1964. *Peter the Venerable and Islam*. Princeton: Princeton University Press

Leveau, Remy. 1990. "The Islamic Presence in France," in *The New Islamic Presence in Western Europe*, ed. by Tomas Gernholm and Ynger George Litman. London: Mansell Publishing Ltd.

Lupton, Julia Reinhard. 1977. "Othello Circumcised: Shakespeare and the Pauline Discourse of Nations." *Representations*, 57 (Winter): 73-89

Lydgate, John. 1942. *The Fall of Princes,* Part III, ed. by Henry Bergen. London: Oxford University Press

Mandeville's Travels Translated from the French of Jean D'Outremeuse. 1919. Ed. by P. Hamelius. London: Kegan Paul, Trubner & Co. Ltd.

Said, Edward W. 1997. *Covering Islam: How the Media and the Experts Determine How We See the Rest of the World*. London: Vintage

______. 1988. "Identity, Negation, and Violence." *New Left Review*, 117 (September/October): 46-60

Schwoebel, Robert H. 1965. "Coexistence, Conversion, and the Crusade against the Turks." *Studies in the Renaissance*, 12: 146-87

The Song of Roland: An Analytical Edition. 1978. Trans. by Gerald J. Brault. University Park: The Pennsylvania State University Press

Southern, R. W. 1962. *Western Views of Islam in the Middle Ages*. Cambridge Mass.: Harvard University Press

Tatlock,J. S. P. 1932. "Muhammad and His Followers in Dante." *Modern Language Review*, 27: 186-95

Toynbee, Arnold. 1948. "Islam, the West, and the Future," in *Civilization on Trial*, 184-212. London: Oxford University Press

Watt, William Montgomery. 1991. *Muslim-Christian Encounters: Perceptions and Misperceptions*. London: Routledge.